التأشيرة

رشيد الميموني ❖

لم يعد البحرُ يخيفها كما كان في الماضي، ولم يعد له سلطانٌ عليها مثلما كان في السابق. لكنّ مقتَها له لا يزال على حاله: مقتًا يعادل هيامَها به، وهي بعدُ يافعةٌ تتلذّذ، صحبةَ قريناتها، بالغطس في أعماقه، وبمداعبة أمواجه في هدوئها وهيجانها.

ستّون عامًا مضت. دانت لها الحياةُ بكلِّ مباهجها ومسرّاتها. لم تعرف سوى النعيم ورغد العيش. آه لو تنحّت يدُ القدر قليلاً عن فلذة كبدها، ولم تَرْمِ به طعمًا لأسماك البوغاز! لكنّ القدر أقوى. لو عاش بكْرُها الغالي لما وجدتْ في ألبوم حياتِها ما يعكّر صفوَها، ولاستمرّ حبُّها للبحر قويًا.

تتساءل أحيانًا: أهو القدرُ الذي خَطف ابنَها وهو في ربيع عمره، أم أنّ ابنَها هو مَنْ هيّأ أسبابَ هلاكه؟ ماذا لو عمل بنصيحتها وأصغى إلى توسّلاتها بأن يُعْرض عن ركوب قارب الموت؟ حقّاً، إنّها لم تسخطْ عليه، رغم أنّه أصمَّ أذنيْه عن استعطافها وبكائها، لكنّ قلبها حدس وقوعَ أمرٍ جلل. الآن ما فات قد فات، ولا يُجْدي الأسى شيئًا. ورحيلُ الابن ليس نهاية العالم؛ فالأمل موجود في قضاءِ ما تبقّى من العمر في العناية بالولد الآخر: فهو أيضًا له الحقُّ في الحب والرعاية والحنان، بل ربما تجمّعتْ كلُّ هذه المشاعر الآن لتغمره وحده، قويةً متوهّجة. وفي بعض الأحيان تعجز عن كبح عواطفها تجاهه، ويتمثّل لها وجهُ ابنها الراحل معاتِبًا في صمت، فتسارع هاتفةً في ابتهال: «لا.. أنتَ ابني أيضًا.. ولم أَنْسَكْ.. وسوف أظلّ أحبّك وأرضى عنك حتى أموت.» ولتنسى لوعتها، تستطرد في دلال:

ـ أنتَ الذي تركتني لتعيشَ في بلاد النصارى!

شعورها بعدم مسؤوليتها عمّا جرى هَوَّنَ عليها المصابَ، فأقبلتْ على الحياة بنفْسٍ مطمئنةٍ متفائلة، سلْوتُها الصلاةُ والتأملُ في كلّ شيء من شرفة بيتها الصغير: في البحر، في الجبل، في السماء، في الماضي والحاضر، منتظرةً كلَّ مساء عودةَ «صغيرها» ـ هكذا تدعوه رغم تخطّيه العشرين. تنظر إلى الباب. هذا وقت وصوله. يندفع الفتى نحوها ويقبّل يدها:

ـ أمي، باركي لي! حصلتُ على التأشيرة. سوف أشتغل بإسبانيا.

قلبها ينخلع من صدرها. أنتَ أيضًا؟ ما لهذه البلاد تبتلع الأولادَ وتجذبهم كالمغناطيس؟

ـ بهذه السهولة؟ ويَهُونُ عليكَ فراقي وتركي وحيدةً؟

فيجيبها بالحماس نفسه:

ـ أمي.. إسبانيا هناك (وأشار بأصبعه نحو البحر). و«مالَكا» عند باب الدار. أَفْطر هناك، وأتغدّى عندك. هيه، ما رأيك؟

كلُّ شيء فيه يوحي بتصميمه. لكنْ بدّ من المقاومة:

ـ ألم تَعِدْني بألاّ تفعلَ شيئًا حتى تستشيرني؟

ـ سامحيني يا أمي (قال وهو يلثم راحتَها). كان الأمر مستعجلاً، وأنتِ تدركين صعوبةَ الحصول على التأشيرة في هذا الزمان.

صمتتْ قليلاً ثم أردفتْ كأنما تذكّرتْ شيئًا ذا بال:

ـ وزواجُك؟ لقد وعدتني بأن تتزوّجَ حالَ وقوفك على رجليْك.

ـ لكنْ (أضاف مبتسمًا) اطمئني! سيكون ذلك عمّا قريب. أمي.. العملُ بسبتة غيرُ مضمونٍ اليوم.

توقّفتْ يدُها عن تحريك حبّات المسبحة وهتفتْ في لهفة:

❖ ـ كاتب من المغرب.

ـ حقًا؟ ستتزوج؟ هل أزغرد؟ من هي؟ لا شكّ أنّها إسبانية. ليكن! المهمّ أن تستقرّ وتدعَ حياةَ الخيطانوس.

نظر إليه لحظةً، ثم حكّ رأسَه كمن يتردّد في الإفصاح عن أمرٍ هامّ:

ـ ماذا بك؟

ـ أمي.. لديّ ضيف.. وأنت ترين ضيقَ منزلنا.

ـ ضيفُكَ فوق رأسي. مرحبًا به.

ـ ولو أنّه نصراني؟

ـ وما يضرّنا من هذا؟ ألف مرحبًا به. آه أيها الثعلب.. لا شك أنّه نسيبُك.

ضحك باقتضاب واستدار نحو الباب مناديًا:

ـ Pablo? Entra!

تأمّلت الضيفَ مبهورةً بحسنه. لماذا كلُّ النصارى بهذه الوسامة؟ نهضتْ مرحِّبةً، وهي تتمتم بكلماتٍ مبهمة. ماذا أقول له؟ هل يفهم شيئًا من العربية؟

ـ قل له إنّي مسرورة باستضافته. يا حسرتي على الإسبانية التي كنتُ أدبِّر بها شؤوني! عسى أن يرضى بما لدينا.

ـ أمي، النصارى لا يبالون بتعقيد الأمور. افرشي له الأرضَ أو هيِّئي له السرير، وأَطْعميه البيصر واللوبياء والكسكس، فسوف يتقبّل ذلك عن طيبِ خاطرٍ ومن دون إبداءِ أية ملاحظة.

ـ حسنًا، سأعدّ العشاء.

ـ ليكن خفيفًا.. فلسنا جائعين كثيرًا.

تشير له في الخفاء أن يلحق بها وتهمس:

ـ هل تريد أن أتنازل له عن غرفتي؟ يجب إكرامُ الضيف وإراحته.

ـ أبدًا.. ماذا تقولين يا أمي؟ هل هو أعزّ لديّ منك؟ سوف ينام في حجرتي.

ـ وأنتَ؟

ـ ربما أفترش الأرضَ قرب السرير.. إنْ هي إلا ليلة واحدة.

ـ الله يرضى عليك. ولكنْ قل لي، لم لم تأتِ عروسُك معك؟ لا تحسبْ حركاتِكَ تخفى عني.. أنا أمُّكَ وأعرفك جيِّدًا.

ـ يا لك من ملحاحة! اصبري، ولكلّ شيء أوانُه.

ـ هل هو أخوها حقًا؟ هل هي في مثل حسنه؟

ـ أمي.. سينام الضيفُ قبل أن يزدرد شيئًا.

ـ أوه حقًا! لكنْ عِدْني أن تخبرني عنها بعد العشاء.

ـ أعِدُكِ.. وإن كنتُ أكاد أسقط من التعب.

❖ ❖ ❖

بعد العشاء، تنصرف إلى غرفتها. تفتح النافذة، فتستقبل أذناها هديرَ البحر. تحملق في الظلمة وتهمس مناجيةً: «هاهو ابني الآخر سيُبْحر على أمواجك، فكنْ لطيفًا معه؛ إنّه لم يتعوّدْ ضَنَكَ العيش، ولم يفرّ تحت جنح الظلام.» يجيبها البحرُ بهديرٍ أقوى، فتنتابها رعشة. وبعد أن تتعب من الوقوف عند النافذة، تستلقي على السرير وتظلّ تتقلّب على جنبها الأيمن ثم الأيسر. ما للنوم يجافي عينيْها؟ هل بلغ بها الفضولُ إلى هذا الحدّ لمعرفة كلّ شيءٍ عن كنّتِها؟ لقد وعدها، وستوقظه رغم تعبه، ثم تنام قريرةَ العين.

❖ ❖ ❖

هديرُ البحر، وإن اشتدّ، لا يوقظ النيامَ. لكنْ حين تنبعث من المنزل الصغير المطلّ على البحر صرخةٌ حادةٌ تخترق الفضاء، فإنّ الحركة تنبعث من الحيّ، فتشتعل الأنوارُ، وتُطلّ الرؤوسُ من النوافذ، وتتجرّأ بعضُ المنامات على الوقوف على عتبات الأبواب لتنظر في دهشةٍ إلى المرأة صاحبةِ المنزل تولول وهي تَذْرع الطرقات كالمجنونة:

ـ يا للمصيبة.. يا للعار.. يا للفضيحة! الله يرحمك يا بكْري العزيز.. قضى عليك تهوُّرُك، لكنكَ كنتَ رجلاً.

تتملّى العيون بمنظر الأبدان شبه العارية، المطلّة من النوافذ أو الواقفة عند الأبواب. لكنّ ثلةً قليلةً انتبهتْ إلى شبح يقفز من شرفة المنزل الصغير ويهرول بعيدًا، ممسكًا بحزام سرواله، بينما وقف شبحٌ آخر مذهولاً على عتبة الباب وقد أنستْه ولولةُ المرأة أن يرتدي منامتَه.

تطوان (المغرب)

ملفّات الأعداد القادمة:

- **العلمانية في السياق العربي ـ الإسلامي (٣)، (إعداد مراسلي الآداب)**
- **المومس في الثقافة العربية ـ الإسلامية (إعداد مراسلي الآداب)**
- **الإصلاح الدستوري في سوريّة (إعداد: ياسين الحاج صالح)**
- **مقاطعة إسرائيل ـ أكاديمياً وثقافياً واقتصادياً (ملفّ مخصّص لـ الآداب من قسميْن، يشارك فيه ١٤ مثقفًا/ناشطًا بارزًا من فلسطين وبريطانيا وألمانيا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، إعداد: عمر البرغوثي وسماح إدريس)**